أبو العلاء المعري

فلسفته وأدبه وقوة ذاكرته

اذا قلنا أنّ أبا العلاء كان فيلسوفاً لم نرد بذلك إنه أحدث في عصره مذهباً فلسفيّاً جديداً في مباحث الاجتماع ، أو الدين ، أو السياسة والادارة أو ما وراء المادة ، أو قوى النفس البشرية ، ولكننا نريد أنّ له مشاركات حسنة في نواحٍ فلسفية نمّت عليها آثاره الطيبة نظماً ونثراً وأيدها عمليّاً بسيرته في حياته فهو من هذه الجهة الحكيم كل الحكيم على نهج سقراط وأفلاطون اليونانيين وكنفوشيوس .

وأما أدبه فقد كان ناضجاً واسع النطاق يعدّ فخراً وتشريفاً للأدب العربي يوم كان الناس لايكادون يفقهون من معنى هذا الأدب إلاّ أبواباً محصورة أشهرها باب الغزل وباب المدح حتى قال الابيوردي :

قالوا تركت الشعر قلت ضرورةٌ   بابُ البواعث والدواعي مغلقُ
خلت الديار فلا كريم يرتجى   منه النوال ولا مليحٌ يعشقُ

هكذا كانوا يقولون ويعتقدون ، مما يحسب وصمة عار وتقصير وتشويه في وجه الأدب العربي لو لم يتداركه من أهله حيناً بعد حين أفراد قليلون يغسلون عنه هذه الوصمة ويكذبون أصحاب ذلك الزعم بما يتناولونه من مباحث قيّمة مختلفة بعيدة الآفاق وفي طليعة هؤلاء الفحول الكرام أبو العلاء المعري فقد تناول أغراضاً جمّة نبيلة ولم يجعل للمدح والغزل من قريحته إلاّ نصيباً ضئيلاً . أما المديح فلإخوان له وفضلاء كان يقارضهم الثناء وعلامات الرضى والاعجاب . وأما الغزل فقد ورد تحت أمثلة فهو عفيف خفيف كما ينتظر من أخلاقه وسيرته . ومن هذا الباب قوله :

زورنا على غير الفواحش قصنا   فلم تنجز إلاّ الذي هو أجوزُ
زنت أعينٌ منّا وعفّت ضمائرٌ   نيتنا وأيدينا عن اللمس تحجز

وقوله : منك الصدودُ ومني بالصدود رضى من ذا عليّ بهذا في هواك قضى
بي منك ما لو غدا بالشمس ما طلعت من الكآبة أو بالبرق ما ومضا
إذا الفتى ذمّ عيشاً في شبيبته فما يقول إذا عصر الشباب مضى

وقال أبو العلاء ذاكراً ما للحظّ من سطوةٍ وسيطرة :

لا تطلبنّ بغير حظٍّ رتبةً قلمُ البليغ بغير حظٍّ مغزلُ
سكن السماكان السماء كلاهما هذا له رمحٌ وهذا أعزلُ

وقبله قال أبو الطيب المتنبي (والجد بفتح الجيم هو الحظ)

هو الجَدُّ حتى تفضل العينُ أختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

كما قال أيضاً في قصائده الكافورية :

ومالك تعنى بالأسنة والقنا وجدُّك طعّانٌ بغير سنان

وجاء بعدها من قال :

وإذا السعادة راقبتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمانُ
واصطد بها العنقاء فهي حبالة واقتد بها الجوزاء فهي عنان

وقال أحد الأدباء الفرنسيين : « اذا استندت الى استحقاقك وحده في الرقي والنجاح ذقت من آلام الخيبة أشكالاً وألواناً » .

* * *

ومن مختارات شعر أبي العلاء ما كان متعلقاً بدقة شعوره في حنينه الى أوطانه واخوانه قال في هذا الباب متشوّقاً وكان لم يزل في بغداد ضيفاً على الخليفة العباسي القادر بالله وقصره في محلة من تلك العاصمة تسمى الكرخ .

متى سألتْ بغداد عني واهلها فاني عن أهل العواصم سآلُ
اذا جنَّ ليلي جنّ لبي وزائدٌ خفوق فؤادي كما خفق الآلُ
وماء بلادي كان أنجع مشرباً ولو أنّ ماء الكرخ صهباء جريال
فياوطني ان فاتني بك سابق من الدهر فلينعم لساكنك البال
فان أستطع في الحشر آتك زائراً وهيهات لي يوم القيامة أشغال

وقال وهو في تلك الحالة وكان الفصل على ما يظهر فصل شتاء أو ما يجاور هذا الفصل وقد سمع صوت الرعود وظن أن البروق تصحبها :

أيا برق ليس الكرخ داري وانما ... وماني اليه الدهر منذ ليالي
فهل فيك من ماء المعرة قطرة ... تغيث بها ظمآن ليس بسالي

قالوا إن الخليفة سمعه يردد هذين البيتين بصوت خافت فأمر خفية بعض خدمه ان يعدوا قافلة صغيرة تذهب بهم الى المعرة فيحضروا اليه مقداراً من مياهها العذبة ففعلوا . وفي صباح وصولها جاء الغلام الموكل بخدمة أبي العلاء وملأ منها كوزه ووضعه في المكان المعين له من غرفة الشيخ والشيخ لا يدري شيئاً من ذلك ثم دخل الخليفة على ضيفه بعلة المؤانسة وفي أثناء جلوسه عطش أبو العلاء فنهض متحسساً حتى بلغ الكوز فاجرع منه جرعة واحدة حتى رفعه عن فيه وقال للخليفة متنهداً : « جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين هذا ماؤها فأين هواؤها » فتعجب الخليفة وأجابه مبتسماً : « اما الماء فقد وصلت اليه قدرتنا واما الهواء فلا تصل اليه قدرة بشرية »

وهذه احدى النوادر التي تروى عن أبي العلاء وهي كثيرة وأخبارها مستفيضة وعلى استفاضتها يدعو في سياق البحث ان أشير الى بعضها . قالوا : لما كان في حلب أنشده شعراء الشام مختارات من منظومهم فحكم لاحدهم بالتفوق وقال له : اذهب فانك أشعر من في الشام . وبعد بضع سنوات كان أبو العلاء في بغداد فجاءه شعراء العراق وأنشدوه مختارات من منظومهم وبينهم ذلك الشاعر الشامي وكان قد أتى بلادهم لتعاطي بعض الأعمال وأبو العلاء لم يعلم بحضوره فلما أنشده عرفه من نغمته فقال له عند فراغه « ومن في العراق » يريد بهذه العبارة عطفها على عبارته السابقة منذ سنين يوم قال للمنشد « اذهب فانك أشعر من في الشام » ولما خرجوا سألوا الشاعر عما قصده ضيفهم العظيم بعبارته فسرد لهم الخبر فقضوا من ذلك عجباً .

ومما روى عنه ان شاعراً جاءه بقصيدة لكي ينقحها له بقصد أن ينشدها مدح فيها بعض الأعيان آملاً ان يأمر له بصلة وبعد تنقيحها أخذها واستأنف طريقه فسقطت من يده في النهر وغرقت ، فعاد الرجل مكروباً ، وكان أبو العلاء جالساً على باب الدار فذكر له ذلك

الحادث، فقال له لا بأس عليك هات قلماً وورقاً ودواة، ففعل ثم أملى عليه القصيدة فأخذها وانصرف وانتفع بها .

ومن تلك النوادر أن رجلين يهوديين اختلفا في قضية حقوقية وادعى أحدهما انه أقرض رفيقه كذا من المال، فأنكر رفيقه الدعوى وليس له عليه بيّنة ، ولا وثيقة خطية فسألهما القاضي ألم يسمعكما أحد حين اتفقتما على القرض قال المدعي كان يشرف علينا من نافذة الشيخ الضرير أبو العلاء، فاستقدمه القاضي وسأله، فقال: انهما تكلما بالعبرانية وأنا لا أفهمها ولكني أحفظ شيئاً من كلامهما فجاؤوا برجل عربي يحسن العبرانية وروى أبو العلاء ماعلق بذاكرته من الكلام العبراني فاذا به يدل على صحة دعوى المدّعي فحكم له بالمال .

* * *

قلنا إنّ قوة الذاكرة الى هذا الحد تحسب من عجائب الدهر وأعجب شيء فيها اذا كانت قد رافقت أبا العلاء في شيخوخته وهذا الطور من العمر تضعف فيه الذاكرة وإن امتدّت وظيفة الادراك وحسن التمييز .

ويظهر أننا نحن رجال القرن العشرين من أبناء الأمة المصرية لا نقل عن شيخنا المعرّي في مفخرة قوة الحفظ وقوّة الذاكرة إذ لم ننس فضله ومناقبه ومحاسن أقواله بعد مرور ألف سنة على عهده . ولكن افتخارنا من هذا القبيل ينقلب علينا عاراً وشناراً وحجة دامغة اذا لم نحتذيه حسب جهد كل منا في فضائله ومآثره ولا سيما في غيرته على الحق والصواب والمصلحة الانسانية العامة . وما أجدر خاصتنا أن تقتبس من منهجه فضيلة التواضع الحقيق ومن ورائها نبل وعزّة نفس حتى يصح أن يقال في الواحد منهم ما قاله أبو عبادة البحتري في ابراهيم بن المدبر أحد أعيان زمانه :

دنوتَ تواضعاً وبعدتَ قدراً فشأناك انحدارٌ وارتفاعُ
كذاك الشمس تبعد إن تسامى ويدنو الضوءُ منها والشعاعُ

اللاذقية : سورية

ادوار مرقص
عضو المجمع العلمي العربي